الرســـالة العاشــرة

قضية النظام مـرة أخرى

لقد سبق لى أن أشرت إلى ضرورة تكوين نظام عقلى لدى المتعلمين أنفسهم ، بالتعاون مع المعلم ؛ إذ إنه دون هذا النظام لن يستطيع الفرد أن يخـــلق عملاً فكريًّا ، أو أن يقرأ بوضوح ، أو أن يكتب بعناية ، أو أن يلاحظ ويحلل الحقائق أو أن يقيم علاقات فيما بينها . ومن المأمول ألا يفتقد كل هذا حب الجرأة والمغامرة فى الخلق أو إلى تحاصل أى منهما الإحساس بحدوده ؛ حتى لا تصبح المغامرة أو الجرأة ضرباً من ضروب المسئولية غير المنضبطة .

ويجب علينا أن نتجنب فكرة وجود أنواع مختلفة من عملية النظام ، كأن يقال أن هناك نظاماً عقليًّا وآخر بدنيًّا ، يتعامل مع التمارين الرياضية ، أو أن هناك نظاماً أخلاقيًّا دينيًّا متشدداً .. وهكذا . وقد يكون هذا التصنيف راجعاً إلى أن ثمة أهدافًا معينة تتطلب طرقاً نظامية نوعية معينة . ومع ذلك يبقى معيار النظام الأساسى فى كونه نظاماً صحيحاً وفى أن يكون فهمه سليماً . هذا فضلاً عن أن يظل أسلوب أدائه ومعايشته ديمقراطيًّا ، وموضوعات إبداعه نافعة . وعلى هذا النظام الأساسى أن يتضمن دائماً الخبرة بمواقع الحدود ، وإدراك التناقض بين السلطة والحرية ، كما أنه لا يتجاهل أبداً الأساس الأخلاقى .

وبهذا المعنى لا أستطيع أن أفهم أن سلطة ما تفرض نظاماً عبثيًّا ؛ حتى يكون لها حرية ممارسة الطاعة المفروضة والولاء المزعوم. ولا يوجد ما اعتبره نظاماً يشل الحركة، ويكون متجسداً فى صورة سلطة بعيدة غير مبالية ، تخنق الحرية أو متجلياً فى صورة أخرى لسلطة ضعيفة ، تنأى بنفسها بعيداً عن ممارسة مسئولياتها باسم احترام الحرية .

كذلك لا يوجد أيضاً نظام يتم فيه تجميد الحرية ؛ حيث تفرض عليها السلطة رغبتها وإرادتها وتفضيلاتها على أنها أحسن ما يمكن عمله من أجل الحرية .. فهو بذلك نظام يعمل على إخضاع الحرية الخائفة أو إعاقة أى محاولة لثورة مخلصة .

وعلى النقيض من ذلك لا يوجد النظام إلا فى حالة التوتر القائمة بين الإكراه الإجبارى للسلطة وسبل البحث المكثف عن الحرية للجهود التى تلتزم بها . ولهذا السبب فإن السلطة التى تنمو بشكل كبير فى طغيانها أو تلك التى تمارس التسيب وإهدار عملية الضبط المطلوبة منها تفقد إحساسها بالحركة ، وتصبح فى حالة ضياع تؤدى إلى تهديد الحرية ذاتها . كما أن هذه السلطة فى حالة نموها المتضخم والزائد ، تغدو حركتها ذات قوة شديدة إلى الدرجة التى تؤدى إلى شلل فى حركة الحرية أو إلى تشوهها . فالحرية التى يتم تحميدها بواسطة سلطة غاشمة عنيفة والتى تطرأ نتيجة لعدم الالتزام بأهميتها ، تضيع وسط زيف الحركات غير الأصيلة .

ومن ضروريات وجود النظام ألا يقتصر مدى التمتع بالحرية الحق فى أن تقول "لا" لما يعرض لك من آراء على أنها الصدق والحق كله ، ولكن فى الوقت الذى عليك أن تتضمن حق ممارسة هذا الحق ، فإن على الحرية أن تتعلم كيف تعزز قدرتها على الإنكار ، لا مجرد التعبير عن الإنكار ، بل باعتباره يتضمن معياراً للتثبت والبرهان .

وفى سياق هذه الحركة فى التعامل مع الحرية ذهاباً وإياباً ، سوف ينتهى الأمر بها إلى أن تستبين قيم السلطة بداخلها ، وتصبح بمعنى الكلمة ، حرية لها سلطة حين تصل إلى موقع السلطة وتظل تحترم الحرية .

إن مسئوليتنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية والجمالية والتعليمية والعلمية لهى على جانب بالغ الأهمية ، على اعتبار أننا كائنات اجتماعية وتاريخية ، وكحملة للذات الفاعلة التى تلعب دوراً هاماً فى التاريخ ، وفى حركة التعارض الجدلى بين السلطة والحرية . وعند إدراكنا لهذه المسئولية السياسية ، دعونا نتغلب على التفاهات السياسية الضيقة . وعند فهمنا للمسئولية الاجتماعية ، دعونا نقول (لا) للاهتمامات والمصالح الفردية البحتة . وعند فهمنا للواجبات التربوية ، دعونا نترك الأوهام التربوية . وعند المطالبة بالأخلاق ، دعونا نهرب من قبح التزمت والتضييق ، ودعونا نوجه أنفسنا لخلق جمال النقاء والصفاء . وأخيراً عند قبول المسئولية العلمية ، دعونا نرفض التشـــوهات " العلموية " أو العلم المزيف .

ومن المحتمل أن يرى بعض القراء المتعبين وجوديًّا والمخدرين تاريخيًّا أننى أحلم كثيراً .. نعم إننى أحلم لأننى كائن تاريخى ، وإذا لم أحلم لن يكون لى وجود . بيد أننى لا أحلم بشكل كبير مما يجعلنى أفكر فى أن ما نحلمه من أحلام قليل جداً بالنسبة لدورها ، الذى لا غناء عنه فى حياتنا وفى العمل على تعزيز ديمقراطيتنا . وتحقيق هذه الأحلام يتطلب النظام فى ممارسة عملية القراءة ، والكتابة ، والتدريس ، والتعلم ، من خلال عملية ممتعة مع أنها صعبة ، وكذلك من خلال نظام منضبط فى مناقشة الموضوعات العامة ، ونظام للاحترام المتبادل فيما بيننا .

ولكى أقول كمدرس " لا يهمنى أى فرقة أعمل بها فإن ما سأعمله أو لا أعمله لن يكون ذا أهمية فى مواجهة حقيقة ، إن الأقوياء سوف يعملون بصرف النظر عن عملى لتحقيق مصالحهم بما قد يتعارض مع المصالح القومية . وهو موقف غير جدير بالمدرس ، فهو ببساطة تعبير عن استهتار ذاتى ، ومحاولة للتبرير عن التقاعس . والأسوأ من هذا أن يصبح هذا التكيف قوة مبررة لعدم الشعور بمزيد من الخزى . وسواء كان موقف المعلم موقفاً جامداً ناجماً عن دوافع استسلام قدرى أو دوافع أخرى ، فسوف يكون له تأثير قوى فى اســـتمرار المظالم والكوارث التى تحيق بنا ، وفى صالح تأجيل الحلول العاجلة .

لا يوجد أحد يستقبل الديمقراطية كمنحة، بل إن الإنسان يقاتل من أجلها . والواقع أن العناصر التى تحول دون أن نكون ديمقراطيين لا تتحطم بالصبر الجميل ، بل بحركة الناس حين يتولون التعبئة والتنظيم والنقد الواعى ، وتشارك فى ذلك الأغلبية من الطبقات الدنيا التى لا تقتصر على شعورها بأنها مستغلة منذ وجود البرازيل كدولة ، ولكنها أيضاً بالاشتراك فى معرفة دواعى هذا الاستغلال ، والحساسية لما وصلوا إليه من حال .

وعندما أتحدث عن حساسية تلك الظاهرة والفهم الناقد لها ، فإننى لا أقترح أى تقسيم بين الحساسية والعواطف من ناحية ، والنشاط المعرفى من الناحية الأخرى . لقد سبق أن قلت إننى أعرف من خلال كيانى كله : شعوراً وعواطف ، وعقلاً ناقداً .

دعنا نبين أن الناس وهم يقومون بالتعبئة ، والتنظيم ، والمعرفة الناقدة ، والتعميق والفرز للديمقراطية ضد أى مغامرة سلطوية ، هم أيضاً أناس يصنعون النظام ويلتزمون به خلال ذلك ؛ إذ إن النظام ضرورة من الضرورات التى دونها لا تنشط حركة ديمقراطية . وفى البرازيل نحن دائماً نخلط بين غياب النظام بسبب إنكار الحرية ، وغياب النظام لغياب السلطة .. نحن نفتقر إلى النظام فى المترل والمدرسة والشوارع والمرور . إن هناك عدداً مذهلاً يفقده المجتمع ممن يموتون خلال عطلة الأسبوع بسبب غياب النظام فى حوادث المرور وغيرها من الكوارث المفجعة .

وهناك ظاهرة أخرى للافتقاد الواضح لاحترام الآخرين وهى ذات وجه كريه لعدم التزامنا بالنظام ، وتلك هى ظاهرة الفوضى وعدم احترام القانون ، وافتقاد الحساسية فى هذا المجتمع لما يجرى من حوادث القتل التى تمر دون عقاب .

وفى النظام الرأسمالى ، تحتاج الطبقات الدنيا التى يستغلها ويسيطر عليها النظام – والذى تسعى فيه إلى تشكيل عملية النظام المعرفى الذكى – تحتاج إلى خلق نظام اجتماعى ، مدنى ، سياسى باعتباره نظاماً ضروريًّا وهامًّا للديمقراطية التى تتجاوز حدود البورجوازية المجردة ، والديمقراطية الليبرالية . وجميعها يسعى فى النهاية للتغلب على الظلم وعدم الإحساس بالمسئولية لدى النظام الرأسمالى .

هذه هى إحدى المهام التى يجب أن نتصدى لها بأنفسنا أكثر ، دون الاقتصار على من مجرد الاهتمام بمهمة التدريس القائمة على وسيلة خاطئة من خلال نقل المعلومات إلى المتعلمين . ومع ذلك فعلى المعلم أن يعلِّم ويعلَّم ، ومن الضرورى أن يقوم بذلك . لكن عملية التدريس والتعلم ليست مجرد نقل للمعرفة ، وإنما تكتمل بحق حين يسبقها أو يصاحبها معرفة بمضمون موضوع التعلم ، والذى سوف يؤدى إلى أن يصبح المتعلمون منتجين للمعرفة التى تعلموها .

إنه بالقدر الذى يصبح المتعلمون ذوات مفكرة كشأن مدرسيهم ، فمن الممكن ساعتها أن يصبح بإمكان المتعلمين أن يغدوا ذوات منتجة لمعانى المعرفة المتصلة بالموضوع .

وبهذه الحركة الجدلية يصبح التعليم والتعلم عملية معرفة وإعادة معرفة. ويعرف المتعلمون تدريجيًّا ما لم يعرفوه ، ويجدد المدرسون معرفة ما كانوا يعرفونها من قبل . وهذه العملية لا تقتصر فحسب على فهم عملية التدريس والتعلم بل تتضمن معايشتها، وكما تتطلب ممارستها عملية النظام الذى أشرت إليه ، نظاماً لا يمكن أن يفصل نفسه عن النظام السياسى ، مما يعتبر ضروريًّا لتكوين المواطنة .

حقًّا إن المواطنة فوق ذلك فى مجتمع كمجتمعنا تسوده تقاليد التسلط العرقى والجنسى والتمايز بناء على القاعدة الطبقية ، إنما تمثل ابتكاراً من النوع الذى يطلق عليه الإنتاج السياسى . وبهذا المعنى فإن أى شخص يعانى من التمييز العنصرى لا يتمتع بالممارسة الكاملة للمواطنة باعتبارها حقاً للسلام معترفاً به . وعلى النقيض من ذلك ، فإن من حق المواطن أنه يمكن التواصل به والتفاعل معه مما يؤدى إلى النمو فى الديمقراطية الحقيقية . كذلك تتضمن المواطنة التمتع بالحرية ، حرية العمل ، والغذاء ، واللباس ، ولبس الأحذية ، والنوم فى مترل ، ورعاية النفس ، والأسرة ، والحب ، والغضب ، والبكاء ، والاحتجاج ، وإعانة الغير ، والحركة ، والاعتقاد فى أى دين من الأديان ، والانضمام لهذا الحزب أو ذاك ، يعلم نفسه وأسرته ، ويقوم بالسباحة فى أى محيط يختاره من محيطات بلده .

والمواطنة لا تكتسب بالصـــدفة ؛ لأنها تكوين متواصل ليس له نهاية ، يتطلب أن يكافح من أجلها ، كما يتطلب الالتزام والوضوح السياسى ، والاتساق فى اتخاذ القرار. لذلك .. فإن التعليم الديمقراطى لا يمكن أن يتحقق منفصلاً عن تعليم المواطنة ومن أجل المواطنة . وكلما ازداد احترامنا للطلاب دون اعتبار لسماتهم فى اللون أو الجنس أو الطبقة تدعمت الشهادة التى نقدمها لمعانى الاحترام فى حياتنا ، وفى المدرسة وفى علاقتنا بزملائنا ، ومع حراس العمارات ، ومع الطباخين ، ورجال الحراسة ، ومع أمهات الطلاب وآبائهم . كذلك كلما قللنا المسافة بين ما نقول وما نفعل سوف نسهم فى دعم الخبرات الديمقراطية ، وسوف نطرح التحدى لأنفسنا فى عمل المزيد

والكفاح من أجل المواطنة واتســـاع آفاقها . وسوف نجعل من أنفســـنا نظاماً فكريًّا لا يمكن الاستغناء عنه ، والذى دونه قد نعرقل تدريبنا ، وهو ما لا يقل أهمية عن نظام سياسى نعتبره ضروريًّا من أجل التكوين المبدع للمواطنة .